مصر في الادب الالماني

« بالموت الذهبي »

٦

وبدأوا بسرعة يستغلّون المنجم . وجعلوا يحتفرون وينشون ويحرقون بين صليب العرق المتساقط في اماكن ضيقة ووسط هواء خانق — وما كان في استطاعة العبيد تحت ضربات سياط رؤسائهم ومراقبيهم منذ قديم الزمان ان يأتوا من العمل بمثل ما أتى به هؤلاء القوم . بل لقد كانت اعظم الاعمال تعباً ومشقة أهمّها في نفوسهم على اللذّة والمسرّة

وفتحوا العرق الوافر المتلىء ثم حفروا مهداً للذهب وتركوه يتدفق . ثم رفعوا رئّهم المتلألىء من معبده العميق الى نور شمس الصحراء الافريقية بين التهليل ، والتكبير .. وكانوا كلما استراحوا تكلموا حول موضوع واحد ليس الاّ . موضوع لهُ عندهم الشأن كل الشأن . ذلك هو الذهب وكانوا كأنما رؤسهم لا يشغلها موضوع آخر غيره ... وأحاط بمضربهم نوع من الكابوس كأنهُ روح شريرة او شيطان من الشياطين . فكلما راح الباحثون عن الذهب في اعماق نومهم منهوكي القوى يهدهم التعب والعمل المضني ، زحف هذا الكابوس عليهم كأنهُ وحش من وحوش الليل . واخذ يتقلب ويتدحرج فوق قلوبهم . ويحتضنهم بأذرعة كالمشابك . ويخنقهم ويضيق عليهم الانفاس .. ألا انهم كانوا رغم ذلك يصيحون صياح من يصارع الموت هاتفين باسم « الذهب — الذهب — الذهب » .. وأحسوا رغم هذه الاحلام المزعجة بالسعادة والسرور لهذا الغنى المفاجىء ولو انهُ التقى به في سعير متقد لما ترددوا لحظة عن الترامي عليه والقاء انفسهم بعده في هذا اللهب الذهبي ليجدوا بجواره اسعد الميتات وانعمها

ألا ان هنالك شيئاً لم يستطيعوا بعد ادراك كنهه او فهم حقيقته . ولم يتوصلوا رغم لهفتهم وبحثهم الى كشف سره . ذلك هو كيف غربت شمس كاشفي المنجم الاولين ، الذين راح خبرهم طي النسيان والفناء . ولم يحاول انسان بعد ذلك البحث عنهم او استقراء اخبارهم. وظهر العرق الذهبي وكأنما هو ينشعب في صميم الصخور ويتفرع مما يدل على عدم امكان افنائه والاتيان على آخره .. ولكنهُ ترك بالرغم من كل ذلك واهمل ونسي

وجعل القائد يكابر نفسه ويخطئها بشكل غريب . ذلك الذي كانت لهُ القيادة عليهم فيما قبل . فلم يصح لهُ اليوم امر او طاعة . اذ تعصوا ضده وعصوه كلما طلب منهم طلباً او رغب اليهم في حاجة . مما جعله يحس فجأة بسخافة اكتشافه العظيم

وعلى قدر ما ساءت حالة الرجل ، حسنت حال رفاقه

وفي اليوم الثالث من أيام وصولهم الى المكان شعروا بشدة الحاجة اليه وضرورة الصعود عنده وتقديم رجاء ورغبة . غير ان معظمهم لم يشأ هذا الرجاء في البدء حتى الغلام جيرودانو نفسه . . الا ان الآخرين تمكنوا من اقناع اخوانهم . فتم الاتفاق في النهاية على ارسال الفتى العسلي كرسول من قبل الجميع . .

— ووجد هذا صديقهُ ملقى بطوله فوق الرمال . ذلك الرجل القوي العزيمة . الجبار الارادة يبدو وقد اخذ خِدْأة بفعل سحر عجيب . فرقد فاقد القوة تحت نيران الشمس كانما فقد رشده . . وتقدم الغلام اليه ثم تلا له بلغة قومه ووطنه (تلك اللغة التي يجعلها تلين في فمه كلما شاء وترق رقة الموسيقى الجميلة الجذابة) « انك لرجل غريب . . ها انت ذا ترقد هنا وتضطجع كأنما بك مرض من الامراض . مع انهُ لم يلمَّ بك اقل ضير . . الا انهُ ليلزمك الاختفاء والبشر بدل الاكتئاب والانقباض . . لقد قمت باكتشاف عظيم . واديت مهمتك التي القيتها انت نفسك على كاهلك أجمل اداء . فلسوف تصبح رجلاً تفخر به الشهرة العالمية . وتصبح فوق ذلك من ذوي الملايين . . كن مستريحاً . فانا اعلم علم اليقين ان ذلك كله ما كان من اجلك . بل من لجلي . . غير انك تدعني هكذا تحت الارض احفر وانبش وحدي كأنني ما زلت في مناجم الكبريت التي انقذتني انت منها ونجيتني . . ها انت تسمعني انا الذي لا انسى يدك على الاطلاق » . .

— لكنت افضل القيء مرة . لو انك ما زلت تكد في مناجم كبريتك وتشتغل . فلا أخلصك منها ولا انجيك . ولا يبقى لك اليوم شيء مما تحاول الآن تناسيه

— شكراً لامانيك الاخوية . ان حالي كما هو . وأنهُ بالحق لأحب اليّ . . ثم ضحك ضحكتهُ الواضحة الصبيانية . وأعقب قائلاً

— تتركني وحيداً كأنما اشتغل واكد واشقى لترقد انت هنا وتحلم احلامك الخيالية غير مهتم بشيء على الاطلاق — لا أهتم بعد لشأن من شؤونك ؟

— أنك ما زلت تحبُّ الطير كما كنت على الدوام . ولست في حاجة الى بيان ذلك ليمنك ؟

— أفقلت لك ذلك ؟؟ — كتأنيب واتهام

— كلاَّ ما كنت أود ذلك قط — والآن فحسبك .. ألا تكن طيب القلب وانهض وتعال معي نذهب . ولنكن احباء — الى اين ؟؟ — الى اسفل — تعني تعال ذلك

— تعال الذهب ؟؟ . . — تعال كل شيء — حسناً . انك خيالي

— ولو اني ما زلت ارجوك ان تتبعني — ماذا يرد هؤلاء القوم مني ؟؟

— لقد اكتشفوا منذ برهة كتابة من الكتابات الحفرية — في المنجم ؟؟

— على جوانب احد الجدران . انني اعرف انك ستذهب معي حالما تسمع ذلك . لا ابتغاء

مرضاة حبك لي ولا اكراماً لهؤلاء القوم . بل ابتغاء مرضاة حبك لعلمك . أنني اعرفك . ومن ذا غيري يعرفك او يستطيع معرفتك . ؟ .. ألا تعالى . . تعالى معي ..

***

ماذا اصاب الرجل ؟ لقد تمكن في ضوء المنجم الارضي المضطرب من قراءة الكتابة المحفورة على الجدار ... واستطاع بكل جهد حل ألغازها التي دهشت لها وتركتهُ عديم الكلام . لقد تمكن كذلك من قراءة كل حرف ورمز في الصحراء من الكتابات الهيروغليفية التي ترشد الى الطريق . الا انهُ وقف امام هذه الاحرف جاحظ العينين لا يعلو وجهه بريق النصر بل الخوف المرعب القتال . . ولم يتمكن كل من رآه في موقفه الحرج من طلب القراءة والكلام والعكس شيء من الخوف والهلع الذي ملأ نظرات جاستون لاتور على القوم الذين احاطوه ومع انهُ لم يلحظ الباقون شيئاً من ذلك الا انهم احسوا بمواجهة مكروه خفي . ثم سمعوا بعد ذلك .. اذ كانت الكتابة لعنة تتلخص في الآتي : —

على كل من يصل الى مكاننا الملعون هذا ان يسرع في الهرب . وكل من يلبث بعد قراءة هذه الاحرف عُدَّ فاقداً . . ان ماء هذا المكان مسموم . فكل من شربه شرب الموت الزؤام . لقد كنا نود نحن عدم التزحزح شبرا ومتنا . . انصتوا الينا ايها الفانون . لا تشربوا . . أنجوا بأنفسكم . . أهربوا

٧

جمع جاستون لاتور القوم في المضرب . وشرح لهم مرة اخرى ما تضمنتهُ تلك الكلمات الماثلة امامهم . وطلب منهم سرعة الرحيل والهرب

أيجب عليهم ترك مناجم ذهب الصحراء فجأة ؟ أيجب ان ينصرفوا عنها وهم يرغبون في استغلالها الى اقصى مدى الاستغلال ؟ أيتحتم عليهم ان ينصرفوا عن جمع الذهب بقدر ما تحمله جالهم وبقدر ما يمكنهم ؟ انقسهم نقله ؟ ايجب عليهم الرحيل ؟ أيلزم ذلك بكل سرعة يستطيعونها حتى في ذلك اليوم اذا أمكن ؟ وقد وصل بهم ذلك الى حد الهياج . فصرخوا في وجه الرجل الذي يطلب منهم المستحيل .. ونادى أحدهم فجأة . لا تصدقوه ! انه يكذب . يريدنا ان نرحل ليعود وحده فيما بعد . انه يكذب . . وصاح الجميع مرة واحدة . . . انه يكذب . . .

وكذلك سرى الاعتقاد بأنه « يريد العودة فيما بعد مع مخلوقات مستأجرة ليأخذ الذهب لنفسه » كان الرجل كاذباً . ذلك الذي ائتمنوه وصدقوه . خادعاً أفاكاً . .

وهب الجميع متفرقين . ثم تزاحموا على المنجم ملقين بأنفسهم فيه . هنالك حيث الجدار الحامل للرمز المقصود به تقرير شيء مرعب مخيف . . ونظر الكل الى هذه الاحرف الهيروغليفية ضائعي الفكر فاقدي الصواب . ثم صرخوا . وهاجوا . وزمجروا . وهدروا ..

واستلقى بعضهم فوق الرمال فأخذ . واستسلموا لليأس والقنوط فهرع الآخرون . وتقدم الفتى الصقلي للخائفين منهم وخاطبهم .. وذكرهم افعاله الوحشي ان يتكلم كالمحموم عن صديقه وصاحب الفضل عليهم فيما بعد . . ولم يقل عنه انه كاذب او مارق . بل طلب من القوم اقناع انفسهم بالبقاء . وذلك لان « الكتابة هي الكاذبة » . .

وأفادت هذه الكلمات في اعادة الهدوء فكانت الحل المنتظر . . « هذا كذب الأموات أنفسهم » وتقدم جاستون لاتور في الليل الى مضرب الغلام الذي أصبح منه كيوذا من عيسى عليه السلام. والتي نجم سماء الجنوب ضوءه الباهت من بين ثنايا جدار الخباء المفتوح على وجه التمام . الذي لا يمكن لطفل ان يهنأ بمثل هدوء نومته وسعادته . . ولكنه كان يقدر هذه السكينة بحس الرعب والفزع لاقتراب اي انسان منه . . فنهض مذعوراً من نومه بعد ان أفلتت آهة عالية من بين أسنانه . وفتح عينيه ثم صرخ قائلاً . . .

- ماذا تريد مني ؟ — أني لم اوقظك ! — أنك تود انهائي بالجحود والكران

— أني ما طالبت احداً بشكر في يوم من الأيام بعد . . ما طالبت احداً حتى ولا أنت على الاقل . فمن أحب شخصاً كانت عقيدته الثقة به . لا الشكر والحمد . فهو سعيد لامكانه حبه . — انني أعلم انك شريف وطيب . وأوقن انني رديء ومؤذ . . ان هي الا طبيعتي التي لم يمكنك أنت تغييرها . حتى ولا بكل حبك وتفانيك . .

— ولا بكل حبي ؟ انه ليجب عليّ الآن بكل هذا الحب ان أدافع عنك وأحميك من نفسك . . — أتلزمني بالرحيل من هنا . ؟ . — هذا ما يجب عليك . !!

— وهل يبقى الآخرون . . ؟ — انه لا يمكنني انقاذهم — وأنت . ! .

— سأبقى لجوارهم . وسنعود بصحبة أحد البدو

— انت تبقى . لتفنى مع هؤلاء القوم ؟ وما ذلك الا لاعتقادك كذب هذه الاسطر ؟

— أيتها الحقيقة المقدسة — ولكنني لا أريد الذهاب

— أتود البقاء نزولاً على رغبة الذهب ؟ ؟ . - أي نعم . أي نعم . .

ثم قفز واقفاً وصرخ قائلاً . « ألا ان ذلك كله لمنتهى الجنون . وقد أصبحنا جميعاً مجنونين . وأنت اشدنا خبلاً . . . لقد مضى علينا اليوم ثلاثة أيام ونحن نشرب من الماء الذي لا بدّ انه قد سمم عادة ما من المواد المهلكة منذ آلاف السنين . كما هو مدون هناك . . وربما كان ذلك منذ قديم الزمان . . غير اننا شربنا اليوم من السم ولم يبدُ له أثر. بل ظننا انعاء . ألا يدل ذلك على عدم وجود سم بعد فيه ؟ دعنا نبحث عن ماء غيره . اذ لا بدّ من وجود غيره هناك . انك رجل عالم . وانهُ ليلزمك العلم بذلك . ان معنا طبيباً عربيًّا كذلك . انهُ يعرف هذه البلاد . يعرفها احسن منك كذلك . وقد صرح

ان ذلك محض كذب واختلاق . فان انهُ لمن الغباء والحمق ان يرحل من هنا وتهرب . انني ارجوك بحق حبك لي ان تساعدنا جميعاً . وان لا تستسلم كل الاستسلام الى افكارك أمصرٌّ على البقاء ؟ — وهل تود ان احرم من نوال الذهب لياخذني معك ؟ انني اعرفك — ليس من اجل هذا الذهب الملعون . . . انك لتعرفني حقًّا — انني سأبقى !

٨

وكان الماء الذي يجب ان يجلب الموت سائلاً ذا لون بني كالطين كسائر مياه آبار الصحراء مع انهُ كان ينبع من طبقات كثيفة من الصخور والرمال والحصى وعروق الاحجار المختلفة الانواع التي لم تكتشف بعد في هذه الانحاء . كان هذا الماء رغم التعكير او النقل المعلق فيهِ افضل نعمة للانسان والحيوان من نعم الصحراء . فهو يهب الحياة ويحميها . اما الموت فكان حيث لا وجود له . واصبح الطبيب العربي كأكبر منقذ في هذه الساحة . فتناول الماء وفحصه . وكان الرجل قد سبق له استصحاب بعض قوارير في الصحراء . فما استطاع احد ان يقول بعد تحليل ماء الآبار انهُ مسموم قط . وكذلك اعتقد الطبيب نفسه صحة هذه «الاكذوبة» التي تحملها الكتابة المقدسة . والتي انتشرت بين القوم منذ زمن قليل

وامكن لهذا الرجل الشافي من جميع حميات الذهب ان يشفي هذه العلة التي كانت لها خطر الحميات الاخرى كذلك . واصبح القوم حذرين — رغم تصريحات الطبيب — فتركوا الجمال تشرب اليسير الواجب وحفروا الآبار في اقل مقدار . كما انهُ امكن للجاسوس لانور حض البدو على الحفر للبحث عن ماء آخر . وكان البدو فقط . وهم دون غيرهم ليس الا ، لان الغلام جيوردانو قد هدد واستعطف . وأمر ورجا

وجعل رجال الصحراء من قبيلة بجا يحفرون هنا وهناك . يحفرون حتى آخر عمق تستطاع الا انهم لم يجدوا ماء قط . فتوقفوا عن البحث . ولم يشتك الباحثون عن الذهب بعد من اي داء . واخذا يتبادلون لعنة هذا الظرف الذي انتابهم . ثم اتفقوا على تحريم الخوض في الحديث عن هذا السم الوحي . واجهدوا انفسهم في نسيان هذه القصة المرعبة حتى امكنهم بالفعل نسيانها . وتنا البعض في انفسهم نحو ذلك الرجل الذي ايقظهم بكل غلظة وقسوة من حلمهم الذهبي . ثم ازالوا تلك النقوش الكاذبة الخادعة بالنقاش وأفنوا معالمها . وتمَّ لهم ذلك بكل احتياط وحذق . كانما هم ينتقمون من عدو دموي ويزهقون روحه الملعونة

ولكنهم ما زالوا حتى اليوم اصحاء اقوياء . رغم استشعار هذا او ذاك تعباً مفاجئاً في الجسم مع الم في الرأس وثقل في الاعضاء والاطراف . فلقد كان ذلك بالحق نتيجة ما يقومون بهِ من جهد وتعب فوق طاقة البشر في مثل هذه الاقاليم الحارة والاماكن الضيقة والاجواء الخانقة . تتنازعهم الانفعالات النفسية في هذا الزمن الاخير . في لهيب شمس الصحراء

لقد كانت بالطبع هي الشمس «الذهبية» . ولكنها كانت في طبيعها الابدي واشعتها الكاوية للجسد والروح «الموت الذهبي» كذلك

«الموت الذهبي» ... كلمة لها رنة الغرابة والعجب

***

وعلم الجميع انهم معذبون بحمى الذهب — وكان ذلك شراً متوقع الحدوث . كما كانوا يعلمون دواءه الناجع كذلك

الذهب — الذهب — الذهب

كانوا مصابين بهذا المرض . كما كان في استطاعتهم مداواته بدوائه الذي يمتلكونه بوفرة وكانت وفرته جديرة بأن تشفي المرضى . وان تحيي حتى الاموات كذلك

وكذلك حفروا . ونبشوا . ونقبوا . ونقلوا الكثير المكتسب الى ضوء الشمس . ثم استراحوا فوقه واستحسنوه منهم عند نومهم محتضنينه بحرارة وحمية ورغبة لا يفعلونها حتى مع احب النساء واقربهن الى الروح

ونال كلٌّ نصيبه . فاذا ما كان لاحدهم نصيب اقل من نصيب غيره — حسد هذا الشخص زميلاً له نال نصيباً اوفر من نصيبه . واذا ما كانا من قبل صديقين اصبحا عدوين بعد ذلك

لقد كانت هنالك الوهية مخيفة تلك التي يتقربون اليها جهد جهارهم والقلب حتى اصبحوا يعتقدون ان كل الله لا بد مرعب جبار . وان الحديث القائل بوجود الله عادل رحيم ما هو الا محض خرافة لا ظل للحقيقة فيها

وعثر احدهم فجأة على اكتشاف مخيف . فلقد تمكن هذا الشخص من الوصول الى عمق ابعد من عمق زملائه في صميم الجبل الصخري . ثم اصطدم بعدئذ بحجرة حجرية . وجد بين جدرانها مقداراً كبيراً من آلات العمل قديمة العهد جداً . وهناك بجوارها كانت اكوام عظيمة من الذهب المستخلص متراكمة مهملة . كما كانت بجوارها اكوام من الرمم والعظام البشرية ميتة بشكل مومياءات قديمة تأثرت بعامل جفاف جوّ الصحراء . وكانت تلك الهياكل البشرية ما زال بملابسها الكتانية وقد تغطت بالذهب كأنما تود التصريح برغبتها في ملاقاة اشد انواع عذاب الموت دون فقدها اياه — وقد تحدث الرجل (الذي استطاع الوصول الى الغار المبني منذ آلاف السنين) الى احد البدو فوعده بجانب من هذه الثروة لو انه اعانه على الهرب بها

وكذلك انتزع الرجلان تلك الجثث من بين اكداس الذهب وأبعداها عنه . ثم القيا بنفسيهما عليه وغاصا فيه وتمنيا لو انهما استطاعا التقلب والتمرغ والتدحرج فوقه . كما يفعل كل انسان يدخل مع الموت حلبة القتال

٩

ضاع الذهب . لقد سرقهُ لص سافل عليهِ لعنة الله والملائكة

سرقهُ البدو . حملوه فوق احسن الجمال التي ما زالت محتفظةً بقوتها بعد . ثم اختفوا بالذهب سرًّا في الليل . حتى الرجال الذين كانوا يناموا فوق ذهبهم . استلبوهم اياه وهم يرددون انفاس الحياة . هؤلاء السود الشياطين المتأكيد . أنهم ولا بدَّ دسوا في طعام البيض [الذين يعتبرونهم كفرة ونصارى] أحد ادويتهم السحرية وعقاقيرهم السرية بالليل . اذ انه لا يعقل ارتكاب مثل هذه السرقة الغريبة الاَّ تحت تأثير وطأة المخدّر . الذي يستلب النظر والسمع والاحساس والشعور — غير انهم لم يسلموا ذهب فرد واحد فقط . ألا وهو الفتى المحبوب لدى القافلة بأجمعها . وبذلك تمكن جيوردانو بلانيتو من الاحتفاظ بذهبهِ . .

أما الكنوز الخفية التي كانت معبأة بخالص الذهب وجثث الاموات في مقبرة الصحراء . فقد فقدت كذلك — سرقت هي الاخرى عن آخرها . .

وحالما اكتشف البعض تلك السرقة أعول وبكى كما يعول الحيوان الوحشي اصابه النار . فاقد الرشد بتأثير الغضب . وأسرع يود تعقب اللصوص السفلة في الصحراء . .

غير انه عاد ثانياً من جديد . . إذ أن الجمال قد فقدت كذلك . ينقصها اكثر من عشرة ولم يسرق منها الاَّ اشدها واقواها . ولم يبق غير تلك التي أصابها الهزال لقلة الماء وتفاهة الطعام . . . — وظهر المرض فجأة على البعض منها

وأعرب جاستون لاتور للقوم عن ضرورة عدم اليأس والاستسلام للمقدور . وأعلن رغبته في سرعة اقتلاع المضرب ومعاودة الرجوع بتلك الجمال المريضة والنجاة بها . .

وأمثل الآن منهم الاصغاء الى نصحه . واتباع قوله وطاعته

ولكن أيعقل ان يسرق ذهبهم ؟ — حظهم وسعادتهم ؟ — بل حياتهم كلها يمكنهم اتباع قوله . . كلاَّ . . وحتى الآن فانهم لا يطيعونه ! . أنهم يودون الاحتفار من جديد . حتى يمكنهم استرداد كنزهم المسروق . بعد ان فاز به لصوص الصحراء

وأخذوا يهددون الرجل الذي يجرؤ على مطالبتهم بترك المكان أ بالموت اذا ما حاول حتى ولو مرة واحدة اخرى طلب الطاعة منهم . — ولكن ماذا تهمه هو حياته ؟ ألا أنهم لا يودون قتله كما يقتلون الكلب الكلب . بل يودون قتل الغلام الصغير الذي يحبه الرجل اكثر من نفسه ذاتها . . — وهذا الغلام ما زال يحتفظ بعد بكل ذهبه حيث يمكنه الذهاب به . والهرب بكل ما يملك . بقيادة قائدهم الأسبق . . .

والآن فعليه حماية نفسه . حيثلم تصبح الجمال الباقية ملكاً لصديقه . بل ملكاً حلالاً لمن وقعت عليهم السرقة وأصابهم شرها . .

وكذلك أصبح هؤلاء يحسنون الجمال ويحرسونها بكل عناية . وأصبح جاستون لانور كما أصبح الغلام العقلي أسيرين ذليلين لديهم . . ومن لم يكن دور الحراسة عليه . . وجب ان يذهب ليحتفر في المنجم . .

وجعلوا يشتغلون حتى اثناء الليل كما يشتغل الارقاء والعبيد . ويتعاقبون الحراسة . حتى يتمكن كل منهم من الحفر والبحث . .

وما كانوا مرضى . وما كان الماء سبباً لعلتهم . . ولكن ماذا كان بهم حتى أحسوا الضعف يأتيهم . وكان هذا الضعف يزداد ساعة فساعة . يبث فيهم الارتعاد والارتعاش مع أنهم أخرج ما يكون الى قوتهم . ومع ذلك فكانوا يحسون في أطرافهم بثقل الرصاص . ويحسون بآلام الوخز المؤجعة المحنقة في رؤوسهم وجماجمهم وبهبوب الحرارة الآكلة في أمعائهم . وكانوا يتعاقبون عن سبب إستصحابهم للطبيب . ذلك الذي أجيز له الحفر معهم والبحث عن الذهب مثلهم وألزم ان يكون في هذه الساعة فقط . طبيبهم المداوي . وألزم ان يعالجهم ويداويهم ويتقدمهم . واعطاهم الاعراب من موادهم وعقاقيره ما امكنهُ اعطاءه لهم . ولكن ذلك لم ينفعهم او يداوهم .

ربما (وقد اصبح ذلك فجأة ظناً لدى الجميع) . ربما وضع لهم الرجل السم في دوائه ليقتلهم ثم يأخذ ذهبهم كلهُ . ذلك الذهب الذي استحلصوهُ ببقايا قواهم الاخيرة . . وهكذا ظنوا السوء بالرجل . واتهموهُ وشكّوا فيهِ . . . لقد كان اعرابيًّا وكفى ما نالهم من الاعراب الذين كانوا لديهم شياطين الانس رجال الشعب الخائن . . . وازداد بهم المرض يوماً بعد يوم . . قد يرجع ذلك الى تناولهم مقدار وافر من الدواء القاتل الذي يقدمهُ لهم اللعين . . وبذلك اصبحوا مسمومين . وسيموتون أمواتاً بعد ذلك . أمواتاً ! . وقادتهم قوائمهم المريضة الى شرور عدة حتى تمكن أحدهم من اطلاق النار على الطبيب فقتله . . ودفنوا جثتهُ بعد ذلك كيفما اتفق ثم اقتسموا فيما بينهم ذهب المقتول الذي جمعهُ من قبل . . وان كان قليلاً نوعاً ما . . وتمنوا لو انهُ كان في استطاعتهم الاستيلاء على ذهب الصقلي . الذي كان محبوبهم يوماً من الايام . الاَّ انهُ كان محفوراً منهم . محروساً احسن حراسة . بالرغم من احتفاظهم بهِ وبصديقه حتى لا يستطيعا الهرب منهم مستصحبين الذهب معهم ليكونا به اغنى الجميع . .

١٠

ماذا تريده هذه الطيور المرعبة ؟ التي لم يرها الانسان من قبل . بل كانت الصحراء عديمة الحياة بقدر ما يستطيعهُ الموت انسه . . اما الآن . ففجأة — فجأة ظهر اسراب النسور . . — وحامت الطيور الكبيرة الضخمة حول المضرب . . ودارت عدة دورات حول المكان . وبسطت اجنحتها العريضة القوية البنية . تلك التي تلمع في ضوء الشمس لمعان « الذهب »

وتعود هذه الكلمة مرة ثانية . . . وتعود دائماً ابداً من جديد في كل مناسبة وحين ... حقاً لقد كانت هنالك النسور . .

وأحاطت بهم في الجو . . وجثمت فوق اعالي الصخور . واقتربت منهم كل الاقتراب . لاتهش ولا تفزع ولا تطير . .

واراد الرجال انزاع تلك الطيور السمحة الوقحة . فصرخوا فيها . ورموها بالحجارة . واطلقوا عليها الرصاص دون ان يمكنهم اصابة الهدف بأذرعهم الكليلة التعبة . فلم تفزع الطيور البتة . بل احاطت بهم وقبعت أمامهم . كأنها تخفرهم وتنتظرهم . . ولكن لماذا ؟ ؟ واخيراً استطاعوا علم ذلك . . كانت النسور من اكلة الرمم . ولقد دفنوا احد الموتى منذ قليل فهل تود البهائم ان ترحل بعد ذلك ؟ ؟

الا انها احاطت بهم ووقفت امامهم تخفرهم وتنتظرهم . .

وكان يزعجهم بعض الاحيان صوت صراخ مفاجيء .. صراخ مفزع عال . يتجاوب صداه في سكون مقبرة الصحراء الهادئة . . ثم تتردد صدى صرخات تلك النسور كضحك سخرية احد الجن في بهجته

***

المرض والموت . . مرض الانسان وموته . . ومرض الحيوان وموته . وقد كان صراع موت الحيوان أشد ألماً مما يقاسيه الانسان . .

وكفاها جاستون لاتور شر ذلك فأطاق عليها النار . ولو أنه ارغم على توفير طلقاته الرحيمة . فأبقى اثنين منها ...

وتوقفوا عن متابعة الحفر . وألقوا بأنفسهم فوق الرمال الحر وتحت اشعة الشمس الذهبية يسرهم تمريض الفرنسي لهم بقدر امكانه

وكانوا صماتاً حتى عن البغض . مساكين بؤساء . لايمكنهم الشعور بالحب حتى ولا لالهتهم الذهبي . لو ان في استطاعتهم البقاء احياء . لانهم يودون الآن الحياة — الحياة — والحياة فقط

وافضى الغلام جيوردانو اليهم بهذه الكلمات . كأنما كانت الحياة لا تزال امامه فسيحة ولو ان تحقيق كلماته هذه لا بدّ لها من المعجزات . فقد كان غلاماً غريراً مرحاً جداً يحب الحياة حباً جماً . . وكان من المستحيل وجوب موته في ريعانه هذا . . كان يائساً ، من الخسارة موته . . وشعر هو نفسه بذلك . ورآه رأي العين . . وقتل بعضهم نفسه . . ملقياً بها من فوق الصخور او قاطعاً اوردته بأسنانه وفقد البعض الآخر وعيه وادراكه . فصدم بجبهته الجدران البيض من جبال النصوان في خبل وجنون . . وتخيل غيرهم نفسه فوق جبال الالب ايام الشتاء وفصل

الازلاق تجري في الصحراء وألقى بنفسه فوق صدر هذه القاتلة الملتهب . .

ولم تصبح النسور في حاجة بعد ذلك لان تحيط بهم وتقبع أمامهم . ولا لان تحتضرهم وتنتظرهم

١١

ولم تحدث معجزة لاحد الاثنين الباقيين . . ولم تمر قافلة منقذة بمضرب الموت . وكذلك لم يساعدهما أي اله . .

ومدّد جاستون لانور غلامه على فراش الموت . وكله كما يتكلم القسيس . . غير ان الميت لم يشأ الالتفات اليه . إذ أنه يريد الحياة . . وقال له صديقه التعزية الاخيرة على الأرض من الحكمة القديمة المقدسة « من أحبته الآلهة . أماتته صغير السن » . ولكن الميت أحسّ نفسه مبغوضاً لدى الآلهة . فامها ولعن الرجل الذي تبعه ليحصل معه على ذهب الحياة . . وعند ما تمددت وراحت اليد العديمة القوة بطراوة أشبهُ بعافي يد الأم . أصبحت جبهة الميت (الرطبة بتأثير الحمى) ناشفة . فقد سدمها الاغفاء .

والآن فلم يبق هنالك أمل . . حيث داقع شباب الغلام عبثاً بقوة خارقة عن الفتى المسكين ضد الموت

وعند ما غرق المحموم في لجة نوم عميقة — عبأ جاستون لانور مسدسهُ بكلا الطلقين الباقيين . . وكان في يده الخائرة قوة كافية لتحقيق خدمته الحبية الأخيرة

***

وحطّت النسور ستة فأستة في هول هذا السكون الفسيح الذي لا يزعجهُ أي صوت آدمي . ووجد النهم منها (الذي لا يزال يبحث عن فريسة) قتيلاً واحداً فقط . صريع طلق ناري . . وكان ملقى فوق سطح بللوري من جبل صوان صبغهُ بدمه . . وكان بجانب الميت وتحت أقدام القتلة المتلألئة فوق رمال الصحراء الحمراء قبرٌ لا يزال جديد التكوين . تحميهِ من النسور قبة سوداء لامعة تعلو عن سطح الأرض علو التكريم والاعزاز . ولم تكن من صخر الصحراء وحجارتها . بل كانت من قطع الذهب والسبائك المأخوذة من الكنز الفرعوني

وألقت شمس الصيف الغاربة وراء الافق المتقد بردائها الارجواني على قبر الصحراء الذهبي . وعلى هذا الميت الوحيد المهجور الذي كان ينتزع نسرٌ نهم قلبه من صدره

حسن رشيد نور
مدرس بمدرسة الفنون التطبيقية بالجيزة